الفصل العاشر

الحب في المراهقة

« ثم أخذت يدي بعد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومة. فأحسست عند ملامسة الأكف بعاطفة غريبة جديدة أشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيلة الكاتب ... عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرفة الروح على وجه القمر قبل أن تبتدىء الدهور . ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادتي وتعاستي منذ ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة ذلك الروح . »

(من قصة « الأجنحة المتكسرة » لجبران خليل جبران)

ليس غريباً أن تنبض قلوب المراهقين بعاطفة الحب وبمختلف المشاعر والإحساسات نحو الجنس الآخر ، فقد نضجوا نضوجاً جنسياً نعرف به أنهم راهقوا .

ولم يعودوا أطفالاً ينقصهم عن الرجال شيء في قدراتهم الحيوية الوظيفية ، وإن نقصوا عن الرجال كثيراً في إمكانياتهم الاقتصادية وفي المراكز الاجتماعية . . في المجتمعات المتحضرة على الأقل !

فعلى أي نحو تكون انفعالات المراهقين وتأثراتهم بالجنس الآخر ؟ ...

إن العاطفة في المراهقة تكون عاطفة غير هادئة في مبدأ الأمر ،

موضوعها — إذا كان لها موضوع — الجنس كله .. ولا بأس أن يمثل هذا الجنس بأى من أفراده ، ولا بأس أن يمثل بعد قليل بأحد أفراده الآخرين !

ومتى كان الأمر كذلك ، فلا غرابة فيما يرويه أحد الراهقين القرويين من أنه وأخاه واثنين من أبناء عمومته — وجميعهم من الراهقين أمثاله — اشتركوا فى تعلقهم بواحدة من قريباتهم ، فكانوا يتوجهون معاً إلى منزل والدها العمدة أملا فى رؤيتها ، وكانوا جميعاً على علم بهدفهم المشترك فلم يروا فيه مع ذلك غضاضة ، حيث كانوا يرون ظماً عاطفياً ليس إلا ، لم يكن مهما منه شخص الحبيبة بالذات ! ولا غرابة أيضاً فيما يذكره بعض الراهقين عن تعلقهم عاطفياً بفتاتين أو أكثر فى وقت واحد ، أو واحدة تلو الأخرى ، وكأنهم كانوا لا يميزون فى كل فتاة غير تمثيلها لجنسها ، أو أنهم أرادوا أن تكون لهم « مادة » دائمة يغذون بها عاطفتهم وشعورهم !

فالعلاقات العاطفية الأولى للمراهقين لا تقوم على أساس من دقة الاختيار أو من المقاييس التى يطبقها الراشدون الكبار عند اختيارهم لشريكة الحياة .. ذلك إن المراهق ما زال بعيد العهد بالزواج ، وهو يستطلع — ليس إلا — ويجرى التجارب المبدئية على ميدان الجنس الآخر وميدان العلاقات المختلطة ، بل ويندفع إلى ذلك بحكم تلك الأحاسيس الجديدة الغامضة النابعة من نموه السريع الوثاب !... فلا مندوحة إذاً من أن يتجه المراهق بعاطفته إلى أول من تصادفه ، وهى عادة من فتيات الجيرة أو من بين قريباته . فإن حازت بعض سمات الجمال أو الخلق العالى أو المركز العائلى ، فإن المراهق يجد فى كل هذا الخيط الذى ينسج منه شعره ويغذى به عاطفته ، وإن

أعوزها شيء من هذا فلا غبار ولا مثربة ، فإن خياله المتعطش إلى الحب كفيل بأن يخلع على الفتاة أبهى رونق وبأن يرسم لها صورة شعرية ، يحب فيها الحب نفسه ، وأمجاد الجنس ، وأحاسيس الحياة الجديدة النابضة بقوة فى أعماقه !

وفى الدراسة الحالية أمثلة كثيرة لتعلق المراهقين بفتيات يكبرونهم سناً ، أو لا يتناسبون معهم فى الأوضاع الاجتماعية ، أو يختلفون عنهم فى الديانة ، أو بسيدات متزوجات وربيبات لأسر . . . وقد يكون لهذا التعلق أسبابه الخاصة فى بعض الحالات (مثل حرمان المراهق من حنو الأم الذى يحمله إلى التعلق بمن تكبره سنا أو من تنوب عن أمه !) ولكن هذا التعلق يفسر — عموماً — بالتعييث[1] (المحاولة والخطأ) فى التجارب العاطفية الأولى ، وبانتفاء الغرض من الاختيار الدقيق ، وباتجاه العاطفة إلى أى من أفراد الجنس متى كانت تمثل جنسها تمثيلا صحيحاً أو قريباً منه .

ويجب ألا ننسى أن فيما يشاهده المراهقون على الشاشة وما يقرأونه من قصص ، كثير مما يغذى أشكال الحب النظرية . . حيث تنتصر هذه القصص والروايات لفكرة انعدام الفوارق فى الحب ، سواء منها الفوارق الجنسية أو الدينية أو الاجتماعية والاقتصادية . . ويتأثر المراهقون تأثراً

---

(١) أدخل استعمال (التعييث) فى علم النفس للتعبير عن (المحاولة والخطأ) الأستاذ الدكتور عزت راجح ، فى كتابه « أصول علم النفس » . واشتقاقه من عيث ، يعيث .

عنيفاً — وخصوصاً لقوة انفعالاتهم ونضاجة خبرتهم — بهذه الصور الغريبة التي تعرض عليهم ، والتي تبدو في الواقع في المجتمع مجاملة كبيرة !

وفي المراهقة ، في مصر ، صور كثيرة من الحب الرومانسي الخيالي ، الباكي الحزين في أغلب الأحيان . . يصف كثير من المراهقين دموعهم وتنهداتهم وأشجانهم في الحب ، ويبالغون في خلع صفات الطهر والعفاف والروحانية على المحبوبة . ويقرر بعض المراهقين أنهم تعلقوا بفتيات لم يتبادلوا معهن حديثاً واحداً وربما جهلن بأمر هذا التعلق من طرفه الآخر . . بل لقد تعلق البعض بصور من نسج خيالهم عندما أعوزهم موضوع حقيقي للحب ، فكتبوا — مع ذلك — الذكريات ونظموا الشعر ، يصفون فتاة الأحلام وأحاسيسهم الغامضة المبهمة ، وحبهم المجهول !!

أهي المراهقة بحسب ؟ . . أم المجتمع الانفعالي وتقاليده ونمط الحياة فيه ؟

هو هذا وذاك . . فللمراهقة وطبيعة النمو الذي فيها تأثيراتها الخاصة على الإبهام والحدة في عواطف المراهقين الذين تنقصهم كذلك الخبرة والمعلومات الواقعية عن الجنس الآخر . وأما المجتمع الانفعالي ونمط الحياة فيه ، فإنه يتحكم — دون شك — في تشكيل عواطف المراهقين وغير المراهقين ، فنرى فيه صور للعلاقات العاطفية لا نرى في بعض المجتمعات الأخرى أو لا نرى فيها بنفس العنف والاعتداد . . ونرى فيه أيضاً مشكلات جنسية يختص بها هذا المجتمع وحده !

ويتأثر المراهقون كذلك بالأغاني العاطفية الواسعة الانتشار ، وبقصص

تأثر الحب العذري الخيالي التي يقرأونها ويشاهدونها في أفلام الشاشة ، فيكون ذلك من بين أسباب اتجاه بعضهم — ممن تحمل ظروفهم النفسية على دعم هذه الآثار — إلى الألوان العاطفية العكسية ، المثالية ، القانطة ...

يقول أحد المراهقين مثلاً (وكانت له ظروفه النفسية التي أفضت بمراهقته وجهة سلبية مرضية) إنه قرأ قصتي « ماجدولين » و « مجنون ليلى » في مطلع المراهقة ، فتسلطت عليه فكرة أنه سيحب فيتعذب في حبه ! وقد جعل ينتظر « الموعودة » التي ستغزو فؤاده ثم تتركه وهو يدمى . فلما تقابل — مصادفة — بفتاة كانت تزور بعض أقربائه ، قرر أنها قد تصلح لأن تكون المحبوبة التي انتظرها طويلا « لتدخل حياته وتعذبه وتضنيه . . » ويقول إنه تعلق بها تعلقاً عذرياً ، وجعل يفكر فيها باكياً معتقداً أنها « رسول عذابه في الأرض ! » وأعاد قراءة ماجدولين والمجنون لهذه المناسبة ، وكتب أيضاً الشعر في محبوبته . .

وإذا أردنا تحليلاً للحب العذري — في حالته العامة — فإنه لا يزيد عن كونه تأثرات جنسية لم تخلص بعد من آثار العلاقات العاطفية في الأسرة (نحو أفراد الأسرة من الجنس الآخر) وتمتزج هذه التأثرات كذلك بالتأثرات الدينية وبالتحريم الجنسي في المجتمع ، فإذا سهالة من التقديس والإبهام تغلف شعور الفرد نحو الجنس الآخر . لذلك تشيع أنماط الحب العذري في مطلع المراهقة ، فيلجأ المراهقون في وصف « الحبيبة » إلى تعبيرات مثل « الأخت » و « الملاك » و « الروح » . . ويشتد الحب

المذرى بصفة خاصة عند المراهقين الذين تربوا تربية دينية تؤكد الفصل بين « الروح » و « الجسد » وقيام الخصومة بينهما ، فإذا بالمراهق يحاول أن يجرد تفكيره فيمن يحب من النظرة الجنسية ويحاول أن يتسامى بعاطفته عن الاشتهاء الجنسي ولذة الجسد .

على أن أشكال التعلق الرومانسي الخيالي لا تبقى طويلا بالنسبة لأغلب المراهقين ، فإن التأثرات الجنسية الصريحة لا تلبث أن تتسلل إليهم وتفرض وجودها القوى عليهم ، وإن حاول بعضهم الفصل — مع المشقة الزائدة في ذلك والصراع النفسي بسببه — بين عاطفة يوجهونها إلى المحبوبة ويحاولون التسامي بها عن صورة الشهوة ، وبين التفكير الجنسي عند تأثرهم بغيرها من النساء ، أو في الصور التي يتخيلونها عند ممارسة « الجنسية الذاتية » ! .

تزحف إذاً الصور الجنسية على المراهقين ، ويزداد تأثيرها وجذبها لانتباههم على مرّ الأيام ، وتتطور نظرتهم إلى المرأة ، ويتطلعون إلى اكتساب الخبرات في ميدان الحياة الجنسية . . . ويستعين المراهقون بتلهم[1] وتجمعاتهم على اقتحام هذا الميدان الواسع المثير ، فيتبادلون خبراتهم ومعلوماتهم ، ويشتركون — أحياناً — في التجارب والمحاولات الاستطلاعية . . . ويقبل المراهقون كذلك بشغف زائد على الروايات السينمائية والمجلات التي تحوى المشاهد الجنسية ، ويقومون بالمحاولات

---

(١) انظر الفصل الثالث عشر من الكتاب .

المتلصصة للتطلع إلى جسم المرأة ، كما يجرون التجارب على العلاقات الجنسية بحسب الفرص التى تسنح لهم . . . ويلوذ المراهقون بالنشاط الجنسى الذاتى وأحياناً بالأساليب الشاذة المختلفة ، كلما ضاقت بهم السبل الطبيعية وألح عليهم الدافع الجنسى فتطلب الإشباع .

وتختلف آثار الخبرات المعقدة لهذه المرحلة من حياة المراهقين ، باختلاف الحالات والظروف الخاصة وقيام التوجيه المناسب . . . وعلى أى حال ، فإن عاطفة الحب تأخذ فى التطور — فى الأحوال العادية — عبر عادج العاطفة عند الراشدين ، فتتجه إلى الحب الجنسى الإيجابى بصفات المحبوبة وشخصها . . ويتجه المراهق تدريجياً إلى الاستقرار فى عواطفه ، وإلى التخصيص فى علاقاته بعد التعميم والفوضى ، وإلى الاختيار الذى يقوم على أصول وأسس تقترب من مقاييس الكبار الراشدين .

ويؤثر الاهتمام بالجنس الآخر تأثيراً كبيراً على سلوك المراهقين . . من عنايتهم بزينتهم وهندامهم ، ومن محاولاتهم المختلفة للظهور بمظهر الشجاعة والرجولة — وخاصة أمام من يحبون . . . كذلك يتأثر نجاحهم الدراسى بنوع الخبرات والصدمات العاطفية التى يتعرضون لها ، كما يصاب بعضهم بالإحباط القاسى عند زواج الفتيات اللواتى يتعلقون بهن . . وتشتد هذه الآثار فى حالات المراهقة المحرومة المجدبة من العطف والجو العائلى فى الأسرة ، والخالية من الاهتمامات العملية الإيجابية .

أما الصعوبة الكبرى التى تعترض المراهقين جميعاً فى المجتمع المتحضر ، فهى عجزهم المادى الذى يقف حائلا دون الزواج ، فيشعرهم بأنهم — وإن بلغوا مبلغ الرجال فى بعض النواحى — ما زالوا قاصرين لا يستطيعون تحقيق جميع رغباتهم ولا يمكنهم دائماً التأثير الإيجابى على الحياة . .

ومن بين ما يلجأ إليه المراهقون نتيجة لذلك ، « أحلام اليقظة » التى يحققون بها فى الخيال ما يعجزون عن تحقيقه فى الواقع ، وهى ما سيتناوله الحديث فى الفصل التالى .